فاعلية العنف في الرواية العربية
رواية «نساء يوسف» أنموذجاً

The effectiveness of violence in the Arabic novel

- Women of Joseph - as a model

الباحثة

أ.د.خالدة حاتم علوان

الجامعة العراقية/ كلية العلوم الإسلامية / قسم اللغة العربية

Researcher

Prof. Dr. khalida Hatem Alwan

Iraqi University/ College of Islamic Sciences

Department of Arabic Language

khalida.h.alwan@aliraqia.edu.iq

Abstract:

The Content Of This Research (The Effectiveness Of Violence In The Arabic Novel "Women Of Joseph") Focuses On The Phenomenon Of Symbolic Violence That The Novelist (Lene Kreidieh) Passed On In Her Novel To Readers And Characters Alike, And The Study Reveals How The Executioner Occurred - According To The Expression Of The Sociologist Pierre Bourdieu - Here, The Novelist Is Under The Sway Of That Ideology Violence Is Subconscious, Despite The Fact That The Novel Won The Sheikh Zayed Book Award, Which Emphasizes The Number Of Winning Books As A Qualitative Addition To The Arab Library, And At The Same Time Emphasizes Peaceful Coexistence, Which Emphasizes The Achievement Of Social Justice As The Most Important Pillars Upon Which Social Peace In Societies Depends., Except That What The Study Revealed It In Analyzing The Implicit Patterns Of The Novel, Which Took It Out Of Its Privacy As It Presented A Stereotype That Was Misunderstood.Therefore, The Study Examined It In An Entrance And Two Axes.That Ideology In Causing Its Opponents From Where They Do Not Feel, As Well As Confirming Its Survival And Continuity In The Collective And Collective Imagination - Specifically The Arab.

Keywords :Physical Violence , Symbolic Violence , Violence Plot And Power , The Power Of Symbolic Violence.

ملخص البحث

ينصرف مضمون هذا البحث (فاعلية العنف في الرواية العربية رواية «نساء يوسف» نموذجا) الى التركيز على ظاهرة العنف الذي مررته الروائية (لينه كريديه) في روايتها على القراء والشخصيات على حدّ سواء، وتكشف الدراسة كيفية وقوع الجلاد- بحسب تعبير عالم الاجتماع بيير بورديو - وهو هنا الروائية تحت سطوة أيديولوجيا ذلك العنف لا شعورياً، على الرغم من كون الرواية قد فازت بجائزة الشيخ زايد للكتاب التي تؤكد عدّ الكتب الفائزة ذات إضافة نوعية للمكتبة العربية، وتؤكد في الوقت نفسه التعايش السلمي الذي يؤكد تحقيق العدالة الاجتماعية بوصفها أهم المرتكزات التي يعتمد عليها السلم المجتمعي، الا أن ما كشفته الدراسة في تحليل الأنساق المضمرة للرواية قد أخرجها من خصوصيتها بوصفها قدمت صورة نمطية أسيء فهمها، لذلك بحثتها الدراسة في مدخل ومحورين، تعلق الأول بمكيدة العنف وسلطته على الروائية، فيما تمثل الثاني بسطوة العنف المادي والرمزي على الشخصيات، ولعل أهم ما خرجت به الدراسة هو قدرة تلك الايديولوجيا في الايقاع بمناهضيها من حيث لا يشعرون، فضلا عن تأكيد بقائها وديمومتها في المخيال الجمعي والجماعي - وتحديداً العربي -.

الكلمات المفتاحية : العنف المادي ، العنف الرمزي، مكيدة العنف وسلطته، سطوة العنف الرمزي.

مدخل

تشكل التركيبة الاجتماعية للمجتمعات العربية المنطلق الذي اعتمدته الروائية في نصها الروائي وهي تقدم لطبيعة العلاقات وفق تصنيف جندري، إذ يتم الاشتغال وفقا لتعاضد عنفين عنف الهيمنة الذكورية الذي يولد عنفاً ثانياً هو العنف الرمزي الذي يكون لا مرئياً يمارس هيمنته أثر تجسده في لاوعي النساء بمن فيهن النسويات، وهو ما أعادت انتاجه الروائية في نصها المتخيل - قيد الدراسة - فـ «حبس المرأة داخل صناديق الثقافة الصلبة والمنفصلة عن الواقع المعيش وعن الإطار الحضاري، حيث التجارب المختلفة والانجازات النسوية، هو ما يؤرق المرأة حقاً، لأن هذا الحبس داخل إطار ثقافة ذكورية لا يأخذ سوى نظرة شديدة الضيق ..فعندما يجتمع وعي ذكوري ضبابي [متبنى لاشعورياً من المرأة] مع واقع حتميته تصورات رجعية متخلفة، يصبح الراهن سجناً ويُطلب من المرأة حقيقة أن تكون عبداً خيالياً لقوة وهمية»[١]، وبذلك تعمل الاداة/النص الروائي على تأكيد الهيمنة الذكورية الذي يعد العنف الرمزي أحد أساليبه,، فالعنف الرمزي في دراستنا هو الثيمات الموازية التي مررتها الروائية دون أن تشعر في محاولة نقد وإدانة الممارسات الذكورية التي فرضها المجتمع على المرأة، إذ يتعين فعل الكتابة/ بوصفه عنفاً رمزياً «بقدر ما تقوم عملية التمييز والعزل الذي يستتبعها، بفرض وترسيخ بعض الدلالات بقدر ما تكون في لحاظ آلية الانتفاء وما تستلزمه من نبذ، جديرة بأن يعيد [نشاط الكتابة] إنتاجها»[٢]، ولما كانت القوة الرمزية تتحدد بوزنها داخل بنية علاقات القوة بين الجماعات أو الطبقات[٣]، فلقد مثل النشاط الكتابي هنا قوة فاعلة في تمرير إيديولوجيا الروائية، لكنها كانت ايديولوجيا مضادة دون أن تعلم، أيّ أنها مثلت الوعي المُهيَمن عليه - بحسب تعبير الناقدة (نيكول كلود ماتيو) الذي تعرفه بوصفه المفهوم «الذي يلغي تقريباً كل مسؤولية من قبل

(١) الذاكرة الذكورية للفلاسفة الغربيين ضد قابلية المرأة للتفكير، نادرة السنوسي و ضمن كتاب الفلسفة والنسوية، اشراف وتحرير: د.علي عبود المحمداوي، منشورات ضفاف- منشورات الاختلاف، الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة، الرباط- الجزائر، ط١، ٢٠١٣ : ٣٥

(٢) العنف الرمزي، بحث في أصول علم الاجتماع التربوي، بيير بورديو، ترجمة : نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٤: ١١

(٣) ينظر : العنف الرمزي : ١٠

المُضطَهِد، ويلقي مرة أخرى التأثيم على المُضطَهَد /المُضطَهَدة»[١] .

تكمن أهمية الدراسة في تركيزها على آليات الاستعباد اللاشعوري، عبر القوى الخفية وغير المحسوس بوجودها، التي تؤكد بالتالي ممارسات تعمد الذات النسوية إدانتها وتفكيك خطابها وفضحه، فيما يكمن هدف الدراسة في الحفر في مسببات العنف التي أصبحت حالة متأصلة في الفكر البشري، الذكوري منه على وجه الخصوص وتفكيك بنيته التنظيمية في المخيال البشري التي يشترك الجميع في إنتاجها دون وعي منهم، فعلى الرغم من رفض الأفراد لمفهوم العنف وممارساته، الا إن « ثقافتنا الشعبية والروايات، وكتب التاريخ، ووسائل الإعلام، والفن، والألعاب، ولعب الأطفال وغيرها من تصاريف الحياة اليومية، مشبعة كلها بصور العنف وأدواته»[٢].

وفي ظل تواشج المعارف وظهور الدراسات العابرة للتخصص، فلا شك أن الدراسات الثقافية - الذي يندرج بحثنا تحت مظلته - سيوظف آليات النقد الثقافي ومنهج علم الاجتماع الأدبي .

ولما كان العنف ظاهرة موغلة في القدم منذ أول جريمة وقعت في تاريخ الانسانية ونعني قصة قتل قابيل لأخيه هابيل، فلاشك أن الظاهرة ستشكل وجوداً حقيقياً ومتخيلاً يتحكم بنوعيه في أنماط حياة الافراد والمجتمع ,وفي دراستنا فلقد ظهر النوعان بوضوح العنف المادي والعنف الرمزي، وستؤشر الدراسة مواضع العنف المادي واحالاته .

ومما تجدر الاشارة إليه أن (لينة كريديه) هي شاعرة وروائية وناشرة لبنانية، ولدت عام ١٩٧٠ وتولت ادارة دار النهضة العربية، صدرت لها أربع روايات (خان زاده)، و (نساء يوسف) ، و (ما ودعك صاحبك) ،و (غانيات بيروت) ،وقبل البدء بتحليل النص الروائي اقتضت الحاجة الوقوف عند خصوصية الرواية لإظهار اسباب اختيارها عينة للدراسة وتقديم ملخص عن ثيمتها الاساس.

خصوصية الرواية:

لاشك ان فوز الرواية بجائزة الشيخ زايد للكتاب جاء لما تضمنته من خصائص معينة، لعل أهمها تناولها لظاهرة اجتماعية نجحت في اضفاء صفة العمومية عليها لتربط من خلالها تلك الظاهرة بطبيعة المجتمعات العربية، والفكر العربي الخاضع لأيديولوجيا ذكورية مهيمنة في كل

(١) الهيمنة الذكورية، بيار بورديو، ترجمة: د.سلمان قعفراني، المنظمة العربية للترجمة، الحمراء - بيروت، ط١، ٢٠٠٩ : ٧١

(٢) سوسيولوجيا الحرب والعنف، سينيشا مالشيفيتش، ترجمة: طارق عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت ,ط١، ٢٠٢٢ : ١٣

المجالات بدء بالاقتصادي والثقافي وليس انتهاءً بالسياسي .

على الرغم من كون الرواية لم تنفرد في تقديم طبيعة الحياة والنظام الاقتصادي والثقافي والاجتماعي الذي تعيش في ظله أي فتاة أو امرأة عربية، لكنها قدمت بأسلوب شيق - في محاولة رفع وعي القارئ- العلاقات غير المتوازنة في معظم الاقطار العربية - إن لم تكن كلها-، بمعنى آخر انها قدمت نموذجا للعالم العربي أو العربي الاسلامي الذي لا يمكن تعميمه على مجتمعات اخرى، فالخذلان وأزمة الاختلاف الثقافي/الديني هي ما يميز الرواية العربية المعاصرة،

فضلاً عن التركيز على الاثر النفسي الذي تعانيه افتراضاً نساء الرواية، على الرغم من المعاناة الجماعية لشخصياتها بما فيهم الرجال.

وفي كل ما سبق فإن قراءتنا للنص الروائي - التي جاءت مختلفة تماماً مع ما يبدو انها معايير اختيار الرواية وفوزها - الا انها لا تمثل حكماً قطعياً، ذلك ان زاوية مقاربته تختلف من ناقد إلى آخر، ذلك إننا بحثنا في أبنية النص الايديولوجية وعضدتها البنية الفنية، بوصفها نوفيلا، لما تتميز به من نفس سردي قصير وكثافة في الاحداث.

اولاً: العنف المادي وتجلياته

يعد العنف أهم أساليب انتهاك حقوق الانسان - وتحديداً النساء- لذلك عمدت الامم المتحدة الى تنظيم حملة مناهضة العنف ضد النساء عبر اختيار خمسة عشر يوم من نهاية شهر نوفمبر حتى العاشر من شهر ديسمبر لرفع الوعي بحقوق النساء ومناهضة كل اساليب القمع والقهر الذي يعانين منه وجعلها حملة عالمية[1]، الأمر الذي يؤكد خطورة هذه الممارسة واثارها على النساء والفتيات، وفي نصنا قيد الدراسة فلقد مررت الروائية لأساليب العنف المادي الملموس الذي عانته شخصياتها النسائية، فتمثل بأشكال عدة، كان الجسد فيها هو ساحة الصراع، لعل أهمها :

١- الطبقية

يمكن عد نتائج الصراع الطبقي المتمثلة في ثنائية السيد/العبد، واثارها النفسية القاسية والجسدية احيانا احدى أساليب العنف المادي، الذي بدأته الروائية في مشاهد الاستذكار الأولى للدادا نعيمة/ الخادمة في بيت العائلة الخليجية، اذ تقدم لمستوى الفقر الذي كانت تعيشه

(١) ينظر : قرار الأمم المتحدة (اعلان بشأن القضاء على العنف ضد المرأة)، موقع الأمم المتحدة على شبكة الانترنيت https://daccess-ods.un.org .

الخادمة، مقابلاً لثراء عائلة الشيخة «نوال»، حين تصف قسوة الشيخة والفاظها النابية وهي تشاهد الخادمة نعيمة تستعمل بواقي فتستذكر قائلة « مرة فاجأتني في المطبخ واقفة أنظف الأواني، كنت أضع بواقي أقمشة ومحارم ومناديل وما تطاله يداي ...جنت لحظتها وشتمتني، هرعت وأحضرت علبة من الفوط ورمتها في وجهي، وأصبحت تراقبني مراقبة دقيقة ...ومرة لم أميز ما بين إسفنجة تنظيف المرحاض وإسفنجة تنظيف أواني الطبخ، كانت الاسفنجات جميعها موجودة تحت مغسلة المطبخ، كانت تثور وتسبني وتنعتني بالجهل والتخلف وتشبهني بالحيوانات»[١]، إذ يبدو أثر العنف الرمزي في جانبه الاقتصادي واضحاً، فلم تكن الشيخة «نوال» صاحبة السلطة المطلقة في خدش مشاعر الدادا لو لم تكن الاخيرة في وضع يساعد الشيخة لممارسة تلك السلطة، فالسلطة ناقصة ولا يكتمل تأثيرها إلا بممارسات الاضعف في هذه المعادلة.

٢- التمييز العنصري

يشكل التمييز العنصري أهم اشكال العنف الرمزي، ولاسيما حين يصدر من فاعل اجتماعي يعاني من عقدة التفوق، اذ تشكل الممارسات اللاأخلاقية في الانتقاص من قيمة الاخر أهم تمظهرات العنف الرمزي، فلقد استذكرت الدادا نعيمة موقفين مرت بهما اثر جلوسها في الطائرة بجانب امرأة أجنبية وصفت لطفها في مساعدتها لارتداء حزام الامان في الطائرة، على العكس من موقف امرأة صادفتها في رحلتها السابقة، فتصف الموقف مستذكرة ما مضى « ساعدتني السيدة الأجنبية الجالسة بقربي.على أن هذه السيدة الأوروبية الملامح تجلس في المقعد المجاور، ففي المرة السابقة رفضت مواطنة أن تجلس بالقرب مني، وكان لها ما أرادت، فأجلسوني قرب امرأة من جنسيتي، عادة لا يأنف الأجانب من الجلوس الى جوارنا، بل انهم يعاملوننا بودّ، حتى وان كان مصطنعا»[٢]، اذ تمارس تلك المرأة سلطتها على الدادا بسبب اللون، وهو ما فرضته بالتالي على طاقم الطائرة، الذين كانوا معترفين بل وخاضعين لرؤيتها، هو ما يشكل عنفاً لا مرئيا ضد شخصية الدادا نعيمة .

(١) نساء يوسف، لينة كريديه، دار الآداب، بيروت - لبنان ,ط١، ٢٠١٢: ١٨

(٢) نساء يوسف : ٦

٣- تعنيف الأب للأبناء

يشكل تعنيف الاطفال وتعذيبهم انتهاكاً صريحاً لحقوق الأطفال، فعبر ممارسات التعذيب تتجلى صورة السلطة الابوية المتوحشة والمستبدة في مقابل صورة الاطفال المقهورين الذي يتعرضون لأقسى اشكال العنف الجسدي من قبل الأب المخمور، اذ تقدم الراوية صورة لذلك العنف وفقا ما تستذكره الدادا نعيمة في مشهد ضربها واخوتها « نادراً ما كان والدي يأتي غير مخمور من جلسات سكره خارج الدار، فينهال علينا ضرباً بسبب وبدون سبب، أشد السياط قسوة تلك التي كنا نتلقاها حين يستيقظ في الصباح وهو يعاني من ألم شديد في رأسه ..لم يقتصر الايذاء على الضرب، بل تلون بأشكال شتى.حتى في حالات هياجه القصوى كنا نلتم بعضنا فوق البعض الآخر ككتلة لحم بشرية واحدة ونحمي رؤوسنا بأيدينا، حتى ينهار تعباً أو يأساً من اللبيط والخبط بنا بيديه العملاقتين»(١).

٦ - الاجهاض

اذا كانت غريزة الأمومة هي الدافع الاساس في حفاظ الأم على حياة جنينها حتى ولادته سليماً، فان فكرة اجهاضه هي خيار وارادة، وان كان خياراً لا اختياراً في حال « نادين» التي حملت بابن «يوسف»، اذ يعمد يوسف الى تدمير دورها/ الامومي واهانة كرامتها، بل وعدم محاولته - تأسيس عائلة معها، اذ تذهب كل محاولاتها في التبرير لنفسها وليوسف في فعلتهما ادراج الرياح، وهو ما وجنا صداه في وصف مشاعرها بعد عملية الاجهاض التي أقنعها بها يوسف « انتابتني أحاسيس متنافرة ثم استقرت في صورة واحدة وهي اجهاضي للطفل لتسلب مني أية متعة جنسية، حاولت جاهدة الهروب الى يوسف وفيه، لكن ما كان يسيطر عليّ كان أقوى من إرادتي الحقيقية بتجاوز هذه الأزمة.حسبت أنّ الزمن هو ما سيجعلني أنسى وأسامح نفسي وأسامحه على فعل ارتكبناه سوياً»(٢).

وفي كل ما سبق، فلقد لاحظنا آثار العنف المادي الذي عانته نساء الرواية، وهو عنف واضح يمكن مناهضته والعمل على تفاديه مستقبلاً بالنسبة للواقع المعيش، عبر حملات التوعية، لكن الأكثر خطراً هو العنف الخفي الذي يؤطر عالم الرواية كله، بل ويتجاوز المتخيل الفني، ليكشف عن تمثلاته وآليات نفوذه في لاوعي الروائية، أو الافراد بوجه عام، بوصفه غير ملموس وغير ملاحظ،

(١) نساء يوسف : ١٤-١٥

(٢) نساء يوسف : ٧٢

بل انه متعايش مع الانماط السلوكية وهو الذي يوجهها ويقولبها.

ثانياً : العنف الرمزي

ونعني به مجمل التمثلات التي سجلتها الدراسة، سواء ما تعلق منها بالروائية والمرجعيات التي انطلقت منها، أم ما يتعلق بالنص الروائي وشخصياته المتخيلة، اي انا بحثنا العنف الذي مورس على الروائية، ولاحقا العنف الذي مارسته الاخيرة على شخصياتها، التي قدمتها الدراسة على محورين:

١- المحور الأول / المعطى الخارج نصي - مكيدة العنف الرمزي وسلطته على الروائية

أ - المرجعيات الثقافية

لما كان موضوع الدراسة يدور في فلك تعزيز الهيمنة الذكورية بصورة غير واعية من قبل مناهضيها، فلقد بحثت عن تمثلات العنف الرمزي في لاوعي الروائية الذي لم تستطع ان تتجاوز ذاتها في كتابتها عنه، فالمجتمعات العربية وعبر سنوات طويلة من العيش في ظل أنظمة شمولية، قد نجحت في تجذير العنف في فكر وممارسات افرادها سواء أكان بقصد أم بغير قصد، لذلك نجد تمثلات تلك التنشئة حاضرة وبقوة في النتاجات الأدبية وان كان القصد منها التمرد والادانة لكل اشكال العنف ضد النساء، فيبدو تبني الروائية لمصطلح (اللعنة) الذي دعا اليه بورديو واضحا في الأحكام المسبقة التي تبنتها الروائية سواء على المستوى الشخصي المتعلق بوعيها أم على مستوى شخصياتها النسائية المتخيلة، وفي دراستنا اسفر البحث عن عاملين امكننا من خلالهما رصد تلك التمثلات وهي :

أ- ١ العامل الديني ...حين قدمت لسماحة الديانة المسيحية وعائلة شخصية نادين الذين تقبلوا يوسف/المسلم على الرغم من تخوفهم من ثقافته الاسلامية - بإمكانية تعدد الزوجات للمسلم - وهو أمر لا يخلو من مقارنة خفية بين الثقافتين الدينيتين حاولت الروائية أن تمررها، فتصف ذلك بالقول» حتى أهلي أحبوه، بعد أن تعرفوا عليه.كان تحفظهم ناتجاً عن عدم ثقتهم بجديته في استمرار العلاقة، وخوفهم من كونها مجرد نزوة طالب ستدوم لفترة ثم يعاود مسيرة مجتمعه عامة وعائلته خاصة، سيتزوج مرة ثانية ويكسر قلبي كوالده تماما.لم يكن الدين هو المانع، لا هم ولا أنا فكرنا به كعائق، رغم أن الرغبة المدفونة في داخلهم، كانت زواجي من لبناني رومي أرثوذكسي

مثلنا»[١]، اذ تحاول الراوية ان تمرر لقابلية الجماعة المسيطرة - هنا - في فرض هيمنتها بوصفها فئة تمتلك قوة اكبر كونها تتمتع بالنفوذ المادي حتى في مجتمعاتهم نفسها، فضلا عن شرعنتها لذلك العنف عبر تأكيدها على مبدأ تعدد الزوجات في الدين الاسلامي .

وثمة ملاحظة اخرى تتعلق بوجهة النظر واسلوب السرد، فعلى الرغم من محاولة الروائية توظيف اسلوب السرد البوليفوني في نصها ومحاولة اظهار الصراع الفكري، الا انها نجحت فيه شكلا وليس مضموناً « فحتى لو كان هناك حضور للأشكال الايديولوجية المغايرة ..فما هو مهم ليس حضور الايديولوجيات، وانما تقديم تأويل لها وادخالها في النسق الخاص للايديولوجيا المهيمنة، فهذه الأخيرة تعمل على اظهار غيرها في صورة سيئة»[٢],اذ منحت شخصية نادين/ المسيحية حرية السرد بلسانها، وهو الفصل الاطول في السرد، ما يؤشر تحيزها لهذه الشخصية التي قدمت لنمط حياتها وتجددها - حتى بعد انتهاء علاقتها بيوسف - على العكس من بقية نساء الشخصيات اللواتي استسلمن لمصيرهن المؤلم، بدليل عنونتها للفصل الاخير باسم (عالية) عمة يوسف وافراح التي انتحرت او قتلت، لتسرد من خلاله خاتمة الرواية ومصير نسائها.

أ -٢ العامل الاجتماعي اذ حاولت الروائية أن تقدم للجانب المشرق من المجتمع اللبناني، وتحديداً درجة الحرية التي تتمتع بها نساءه وتقبلهم الممارسات الغربية لبناتهم، اذ تشير ضمنا لفكرة» المساكنة» التي تمثل احدى الممارسات الطبيعية في المجتمعات الغربية، تلك الممارسة التي اعتنقها «يوسف» و «نادين» اثناء اقامة علاقتهم العاطفية، فتمر على تلك الممارسة مستذكرة اهتمام «يوسف» بها، فتقول مؤكدة تلك المعايشة» كنا نتشارك إيجار المنزل لكنني أعرف أنه يأخذ مني حصتي في الايجار ظاهرياً ,ثم يشتري لي بها كل شهر هدايا وأجمل الملابس، كرم يوسف متميز، كذلك إحضاره لباقات الأزهار وأصص الزرع التي تشي بالحياة في دار صغيرة»[٣]

على الرغم من محاولة اظهار شخصية «نادين» المقدرة لمسؤولية العيش ونفقاته، الا انها اكدت تصرف «يوسف» - وهو ممارسة ذكورية بلا شك - في تحمل كامل النفقات، بدليل اعادة المصروف - الذي يتوجب على نادين دفعه- على شكل هدايا، فهي هنا تقدم لطبيعة الرجل الشرقي في احساسه العالي بالمسؤولية وعدم تقبله مشاركة المرأة في المسؤولية - الذي يشير ضمناً

(١) نساء يوسف ٦٦-٦٧

(٢) اسلوبية الرواية، مدخل نظري، حميد لحميداني، منشورات دراسات سيميائية أدبية لسانية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٩ : ٤٤

(٣) نساء يوسف : ٦٨

الى المساواة معها - وان كانوا في مجتمع غربي- يوجب عليه الخضوع لقوانينه وأعرافه.

ب- عنوان الرواية

العنوان بوصفه أولى العتبات والموجه القرائي الأول، يحيل بدء للإغراء الذي مارسته زليخة على النبي يوسف - بحسب المرجعيات الدينية - سواء الاسلامية منها ام التوراتية و الانجيلية، وهو دافع الاغراء الاول للقراءة، فضلاً عن الصورة النمطية لجمال النبي يوسف وقوته في مقاومة اغراء النساء ,اذ يتبادر للذهن أولا الفضول في اكتشاف نساء يوسف المعاصر، فعلى الرغم من تهميش شخصية الذكور في السرد - وان كانوا الفاعلين الاساس في حيوات نساء الرواية، الا ان دلالة العنوان قد أوقعت الروائية في مكيدة العنف الرمزي، فالقارئ ينظر لحياة تلك النساء عبر نقطة المركز/يوسف، اذ يتكون العنوان من المبتدأ (نساء) وهو نكرة اكتسب التعريف بإضافته الى اسم مذكر/ يوسف، فالعنوان بكليته اشار الى ملكية يوسف لنساء الرواية !، فالمعنى العام - لرواية نساء يوسف - (عالم او ما يحدث في عالم نساء ذلك الرجل)، ولو تتبعنا عدد النساء اللواتي قدمن من خلال يوسف لوجدناهن - على الرغم من اختلاف ادوارهن- ما يقارب عشرة نساء، مقابلا لرجل واحد، وفي احيان قليلة يشترك معه والده في مساحة السرد على قلتها -، فالرجل / المغيب سردياً والفاعل معنوياً لم يكن حلقة الوصل بين تلك النساء فقط، وانما تم استدعاؤه لتأثيث الفضاءات السردية المتنوعة بين لبنان ولندن وواشنطن واحدى الدول الخليجية التي لم تحددها الروائية في محاولة لتعميم طبيعة الحياة وما تعانيه نساء تلك المجتمعات.

وعن علاقة العنوان بالثيمة نجد الارتباط واضحا بين المعنى المجازي بإحالته الدينية لقصة النبي يوسف ومعاناة زليخة في حبه، وبين المعنى الذي قصدته الروائية في معاناة النساء في عالم يوسف حتى اللواتي لم يعشن علاقة الحب معه مثل امه واخته وعمته والخادمة، فلكل واحدة منهن معاناتها الخاصة، اذ تكون الدلالة مشابهة للدلالة الدينية في مرجعيتها فيما يتعلق بحياة النساء، لكنها مغايرة لدلالتها الدينية فيما يتعلق بحياة يوسف/ الشخصية في الرواية الذي أصبحت حياته أسيرة للتقاليد والاعراف وجعلت حياته تدور في فلك العلاقات العابرة مع بائعات الهوى على الرغم مما يتمتع به من مواصفات الإنسان الناجح، وعلى الرغم من تبعية النساء ليوسف في عنوان الرواية، الا انه في المحصلة لم يستطع ان يتملك احداهن، بل كان حلقة الوصل في دائرة السرد عن عوالم تلك النساء، اذ يمكن ان يقرأ العنوان - من هذا الباب - قراءة عكسية، اي انه يكون مفارقا لثيمة الرواية الرئيسة.

وفي المحصلة فلقد عمدت الروائية الى توظيف البعد الديني في عنوان الرواية الذي يمكن

قرأته من وجهتي نظر متقاطعتين، وقد يكون قد خضع بالتالي لأسلوب السرد التمويهي، فعلى الرغم من شكل السرد البوليفوني، الا ان المنظور السردي انطلق من رؤية تمويهية اذ انها اكدت ان الحقيقة المطلقة هي معاناة المرأة وقهرها الذي يسببه الرجل، فالحقيقة ثابتة في النهاية(١)، فضلاً عن ظهور صوت الروائية واضحا على الرغم من محاولتها اعطاء الشخصيات حرية السرد وعنونة الفصول بأسماء النساء حصرا اذ جاءت عناوين الفصول الستة بأسماء نساء الرواية لكنهن لم يعبرن بصوتهن الخاص، بل بصوت الراوية العليمة/الدادا نعيمة، وهو ما يؤكد عدم مقدرة الروائية في تجاوز ذاتها، ففرضت وجهة نظرها الخاصة على الشخصيات وعلى القراء.

٢- المحور الثاني/ المعطى النصي - سطوة العنف الرمزي على الشخصيات

في هذا المحور ستبحث الدراسة تأكيد التمثلات المهيمنة لصورة النساء في الوعي الذكوري، جاءت تمثلات هذا المحور بوصفها حالاً من « كل أشكال العنف الناعم تحديداً الذي بالكاد يُرى أحياناً، والذي [يبدو للوهلة الاولى - هنا - أن] تعارض به النساء العنف الجسدي أو الرمزي الممارس عليهن من قبل الرجال بدءاً بالسحر والحيلة والكذب او السلبية في الفعل الجنسي وصولاً الى الحب الاستئثاري للمغرمين حب الام او الزوجة الامومية التي تجرم وتذنب، بأن تحيل نفسها الى ضحية، وأن تهب تفانيها اللامتناهي وتألمها الصامت»(٢)، فجاءت استراتيجيات الانماط وفق مبدأ الهيمنة الذكورية التي قولبت النساء حتى في لاوعي المدافعات عنهن، ونتفق هنا مع الناقد الدكتور (عبدالله الغذامي) حين أكد أن الثقافة والتاريخ هما من بخس حق المرأة وليس الدين كما تذهب الى ذلك النسويات كافة(٣)، فلقد لاحظنا تجذر صورة موت المرأة في لاوعي الروائية التي تتفق فيها مع صورة المرأة في الذهنية العربية منذ القدم(٤)، بدليل مصير(عالية) و (افراح) والموت المجازي الذي تعيشه (الشيخة نوال) وابنتها (زيزي) وكذلك (نادين)، فهو محو لكن من نوع خاص، وقد رصدته الدراسة في اسلوبين ,هما :

(١) ينظر : السرد الروائي وتجربة المعنى، سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٨ : ١٩٠

(٢) الهيمنة الذكورية : ٥٨

(٣) ينظر، المرأة واللغة : ثقافة الوهم (مقاربات حول المرأة والجسد واللغة)، المركز الثقافي العربي و الدار البيضاء -بيروت، ط١، ١٩٩٨ : ٥

(٤) ينظر : الكتابة ضد الكتابة، عبد الله الغذامي، دار الآداب، لبنان - بيروت، ط١، ١٩٩١: ١٨

٢- أ نمطية المرأة

لم تقدم الروائية نموذجا سويا واحداً لنسائها، فكل ما حصل لهن كان ردّ فعل لسلوك أو موقف الرجال معهن، إذ اكدت استسلامهن جميعا لأقدارهن، دون أدنى محاولة من أية واحدة على الاعتراض على مصيرها، حتى «نادين» التي حاولت اظهار رفضها وادانتها لطبيعة التفكير الذكوري وأنانيته، صيرت منها امرأة لعوب بعد أن تخلى عنها «يوسف»، وهي بذلك تؤكد قدرة الرجل على التحكم ليس في وضع المرأة الآني، بل حتى مستقبلها - على الرغم مما تتمتع به من مؤهلات، اذ تصف تحولها الى امرأة لعوب تقيم علاقتين مع رجلين في الوقت نفسه، اذ تصف نادين تخطيطها للتخلص من علاقتها بمايكل بعد أن سئمت منه، فتقول مستذكرة « عدت الى واشنطن ليستقبلني مايكل في المطار، تعجبت من هدوئي ومن القبلة البيضاء العفيفة التي رسمتها على خده، ومن ثرثرتي عن الانهاك الذي أعانيه من جراء المؤتمر لأهرب منه الى السرير وأخطط لكيفية افتعال مشكلة أطرده بعدها خارج حياتي كلها، في وجود رجل آخر أصبحت المهمة سهلة جداً فلا يُنسى الرجل إلا برجل آخر»[١].

واذا كانت نادين قد حاولت تخطي فشلها مع يوسف عبر اقامة علاقات متعددة مع الرجال، فان افرح زوجة يوسف قد استسلمت لمصيرها ودورها في اتساع فجوة الجفاء معه وساعدته بتواطؤ منها فيما اشاعه عنها بمعاناتها من مرض نفسي فأصبحت « فعليا لا تتدخل به لا من قريب ولا من بعيد بل تتجنبه، حتى أهما فصلا غرفة النوم وأصبح لكل واحد منهما خاصته ..حاولت في سنواتهما الاولى أن تشعره بوجودها كامرأة ..لكن روح يوسف ليست معها بل مع نادين برغم مرور كل تلك السنوات الطوال..حتى استسلمت، ربما معه حق وهل يوجد بها ما يغويه؟ قليلاً ما يأتي لغرفة جلوسها ويؤنبها أحياناً بهدوء وأكثر الاحيان بعصبية واضحة، يبطن عبارته الخبث الشديد بأنها بحاجة لعلاج سريع...من شيم يوسف الجديدة شكواه للعائلة، فتارة تأتي أمها لزيارتها وتنصحها..الجميع مصرون على أنها يجب أن تزور طبيباً نفسياً وصحياً من أجل الهزال الذي تعاني منه: فقدان الشهية والأرق والإرهاق المزمن.كل هذا دلالة واضحة على مرضها»[٢]، اذ تؤكد الروائية مبدأ التواطؤ الذي أتبعته (افراح) في انقيادها لما خطط له (يوسف) وتحميلها الم حرمانه من (نادين) واستحالة زواجه بها.

---

(١) نساء يوسف ٨٦-٨٧

(٢) نساء يوسف ٩٦-٩٧

ويبدو إن مصير (زيزي) كان الأقسى بين النساء، فأصبح الضياع جسديا ونفسياً، وقد يأتي توظيف هذه الممارسة بين النساء المحرومات من العاطفة والعلاقة الزوجية بسبب من انغلاق مجتمعاتهن والتشدد الذي يجعل الرجال يزهدون فيهن ويلتجئون لبائعات الهوى، بوصفهم قد ضمنوا امتلاك زوجاتهم .

٢ - ب تأكيد الهيمنة الذكورية

على الرغم من هدف القص النسوي في « كشف وازاحة عناصر المنظور الذكوري والشمولي لصالح صورة المرأة ووضعها المرتجى ..من أجل استكشاف وتشخيص الواقع النسوي وتصحيح النظرة الثابتة السائدة»(١)، الا ان سؤال الكتابة الذي حاولت الروائية طرحه في نصها لم يستطع ان يفلت من المهيمنات الذكورية في لاوعيها، فتسربت تمثلات العنف الرمزي بطريقة لاشعورية لتعجز عن فضح آليات الثقافة الذكورية بل والفشل في الرد عليها، اذ مثلت مواقف المرأة في صورة السلبية والعاجزة بل والخاضعة لقوة الرجل، ولعل الدليل الاوضح يتمثل في المشهد الذي اختزلته الرواية في لقطة ثلاثية، جمعت فيه ثلاثة نساء كن ضحايا للرجال، اذ اسقطت بدءً صورة ومصير «عالية» عمة «يوسف» و»افراح» الذي انتهى بموتها بطريقة مجهولة، وحال افراح بوصفها زوجة «يوسف» و»نادين» حبيبته التي تخلى عنها، اذ استعارت ذبول نباتاتها - كناية عن ذبولها، وبالتالي انطفاء ارواح النساء الثلاثة، وهو ما اختزلته في وصف حال افراح التي كانت تجلس « على تلك الكنبة القذرة [متقوقعة] هيكل عظمي يلبس جلداً أسمر مكرنشاً.تنظر الى المرآة فترى عمتها عالية تذوي كنباتات نادين في شهر أغسطس...تختلط في دماغها الصور وتتشابك لدرجة الهذيان فترتحل نحو سماء مصنوعة من قطن ودخان وحليب.تغيب قليلاً ثم تعود تشتم رائحة الديمول وتنزعج من امتلاء الغرفة بأكياس سوداء تختبئ فيها زجاجات المبيد الحشري»(٢).

ولم تكتفِ بوصف خواء احساس «افراح»، بل جعلتها تعيش شعور الامتساخ والاقصاء والنبذ الاجتماعي بسبب «نادين» التي خلقتْ حاجزا بينها وبين «يوسف»، فلم تعد تنتمي لعائلتها بسبب الجفاء العاطفي الذي سببه لها «يوسف» فراحت في مخيلتها « تفتش عن وجه نادين ...وهي تنط بجسد ضفدع أخضر، ووجهها مستنفر، وشعرها منبوش، فترى خيال يوسف من بعيد، لا صوت

(١) صوت الأنثى، دراسات في الكتابة النسوية العربية، نازك الأعرجي، دار الأهالي للطباعة والنشر، سوريا، ط١، ١٩٩٧ : ٣٦

(٢) نساء يوسف : ١١٠

لها، فقط نقيق مستمر من غير توقف، تحاول أن تقول ليوسف بأنها تريد قبلة لتعود بشرية، لكن شبح يوسف يختفي فتغطس في مستنقع الطين..ها هم أولادها يلعبون بالماء ..لا ينتبهون لضفدع أخضر مختبئ بين الحشائش، لن ينق الضفدع كي لا ينتبهوا له فيسخروا أو يقرفوا من شكله أو يطاردوه»[1].

وفضلاً عن المؤشر الأول في تأكيد الهيمنة الذكورية في النص، فلقد كشفت الدراسة عن قبول النساء بتلك الممارسات وعدم رفضها، بل الانصياع لها بوصفها مسلمات، فعلى الرغم من تهميش دور الرجل واقصائه من دائرة السرد - كما اسلفنا -، الا انه كان الفاعل الاساس في تغيير حيوات كل نساء الرواية، وعلى الرغم من اشارتها لأربعة رجال في الرواية فقط لم تقدم لأوصافهم - ما خلا يوسف - الا انهم أكدوا فاعلية سطوتهم وان كانوا مقصيين !، اذ ترضخ الشيخة «نوال» ومن بعدها ابنتها «زيزي» و «افراح» لممارسات ازواجهن، الذين يمارسون عليهن قهراً نفسياً، يجعل حياتهن تتغير نحو الاسوأ ,والسبب الأساس هو التقاليد الاجتماعية التي تمنح الذكر امتيازاً لا يحق للمرأة الحصول عليه، أو مناقشته اساسا - بوصفها سلطة متنفذة - ، ولا نبتعد اذا ما وصفنا ممارسات العم/ المغتصب للساردة الدادا «نعيمة» والحال نفسه مع «نادين» التي كُسرت روحها وانطفأت بعد خذلان «يوسف» وانسحابه من علاقتهم.

وعلى الرغم من محاولة الروائية تبرير مصير نساء شخصيات روايتها، الا انها بالتالي رضخت لمقولات النسويات في اتهام الدين وطبيعة المجتمعات العربية في تحديد مصير النساء، وفي كل الاحوال فلقد مارست شخصياتها مبدأ التواطؤ مع الرجال في تحديد مصيرهن والقبول به والاستسلام له.

٢ - ب -١ المرجعيات الدينية

إذ يقترن الديني بالاجتماعي كما في محاولة تبرير نوال لزواج الشيخ وتقبل الأمر دون نقاش، فلقد « كانت تجمع شتات نفسها المكسورة، لتستقبل زائراتها بابتسامة عدم اكتراث، معلنة رضوخها لحكم الشرع الذي أحل للرجل الزواج من أربع، فلا مناقشة لما حلله الله في كتابه العظيم، وهي في نهاية الامر الأصيلة، أم الرجال، وزوجته الأولى وأبنة عمه»[2]، اذ اصبحت المرأة هنا مشاركة في ممارسة العنف الموجه ضدها، بدلا من تمردها ورفضها لذلك الزواج الذي أهان

(١) نساء يوسف : ١١٠-١١١

(٢) نساء يوسف : ١٠

كرامتها، فهو عنف غير محسوس لكنه كان الأخطر في تدمير حياة المرأة.

٢ - ب -٢ الأعراف والتقاليد

على الرغم من اختلاف الحواضن الثقافية/ الدينية لشخصيتي (يوسف) و(نادين) إلا انهما يعلمان ضمنا ان الحمل خارج المؤسسة الزوجية مرفوض لدى العائلتين، لكنه اصبح واقع حال لدى الشخصيتين وعليهما التصرف وفقا لتقاليد مجتمعهما العربي اولا، اذ تصرح نادين التي كانت حاملا بابن يوسف رفض عائلتها ذلك السلوك كما انها تعي جيدا رفض عائلة يوسف المطلق لما حصل، فتعرج على تأثير الدين في مجتمعه الذي سيكون اهم اسباب رفض عائلته لها، قائلة « من المستحيل أن أخيب أمانيهم بأن أنجب طفلا قبل الزواج وأتلهى عن دراستي لأكون مجرد زوجة لرجل يستطيع تأمين حاجاتي ورفاهيتي المادية.هو كذلك عنده أسباب وجيهة، فمن غير المنطقي أن ينبئ أهله بزواجنا وولادتي بعد أقل من سبعة أشهر، هذا لن يرتضيه لي ولاحترامهم الشخصي ولنظرتهم لي قبل أن يفكر بنفسه في مجتمع ضيق وأصولي إسلامي متمسك بتقاليده وعاداته حتى إن المرأة لا تستطيع هناك الخروج إلا بأذن وبلباس متشدد ولأمكنة محددة»[١]، إذ يتضح نقد الشخصية للقائمين على المؤسسة الدينية في بلد حبيبها وقيود التقاليد وما تمارسه من ضغوط نفسية عليهم.

(١) نساء يوسف : ٧١

الخاتمة

وفي نهاية هذه الدراسة يمكننا التأكيد أنها قد نجحت في الكشف عن هدفها الرئيس المتمثل بتمرير العنف على القراء والشخصيات على حد سواء - على الرغم من محاولة الروائية ادانته- ،اذ يمكن ايجاز نتائج الدراسة بالآتي:

١- كانت الرواية بحد ذاتها احدى اساليب ممارسة العنف الرمزي على القراء، فمجرد الانتهاء من القراءة ستشعر النساء - تحديداً - باضطراب ما بعد القراءة، فاذا كانت احدى طرق معالجة اضطراب ما بعد الصدمات النفسية هي قراءة رواية للخروج من الواقع المعيش والتماهي مع عالم متخيل، فكيف سيكون الحال مع رواية تمارس علينا عنفاً لا مرئياً يتجلى بأحاسيس العجز والضيق بعد الانتهاء من القراءة !، فلقد مارس العنف سطوته على الروائية عبر التصورات الكامنة في اللاوعي، فيما مارست عنفها على القراء عبر ممارستها الثقافية بوصفها نشاطا كتابيا، أما العنف الرمزي الذي مرر على الشخصيات فلقد مارسته في تأكيد مفهوم الهيمنة الذكورية.

٢- تكمن خطورة العنف الرمزي في كونه غير محسوس وغير مرئي، لذلك فانه يتسرب الى الممارسات البشرية على حد سواء دون وعي بخطورته وتجلياته، فيكون غالباً أحد أساليب تأكيد الهيمنة الذكورية.

٣- يمكن عدّ النتاجات الثقافية - الأدبية منها - مجالاً رحبا لممارسة العنف الرمزي، بوصفها ايديولوجيا يمررها الروائي/ة على القراء، لانهم الطرف المهيمن في توجيه السرد.

٤- لم تقدم الروائية شخصياتها النسوية كذوات فاعلة، تستطيع التغيير والمقاومة، بل قدمتهن كذوات منفعلة وخاضعة لكل ممارسات الرجال عليهن من القهر والاحتقار والتعنيف، والقبول بالمصير المعتم الذي فرضه الرجال عليهن.

٥- أكدت الروائية اسلوب الهيمنة الذكورية، حينما جعلت شخصياتها يتنافسن على الرجل - وتحديدا الصراع الذي عاشته افراح مع غريمتها نادين-، هي بالتالي اعادة انتاج اسلوب شهرزاد في الاحتفاظ بالرجل، وينسحب الحال على زيزي شقيقة يوسف.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

رواية « نساء يوسف»، لينة كريديه، دار الآداب - بيروت ,ط١، ٢٠١٢ .

ثانياً : المراجع

١- اسلوبية الرواية، مدخل نظري، حميد لحميداني، المركز الثقافي العربي، بيروت,ط١، ١٩٨٩.

٢- سوسيولوجيا الحرب والعنف، سينيشا مالشيفيتش، ترجمة: طارق عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت ,ط١، ٢٠٢٢.

٣- السرد الروائي وتجربة المعنى، سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٨.

٤- صوت الأنثى، دراسات في الكتابة النسوية العربية، نازك الأعرجي، دار الأهالي للطباعة والنشر، سوريا، ط١، ١٩٩٧.

٥- العنف الرمزي، بحث في أصول علم الاجتماع التربوي، بيير بورديو، ترجمة : نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٤.

٦- الفلسفة والنسوية، اشراف وتحرير: د.علي عبود المحمداوي، منشورات ضفاف- منشورات الاختلاف، الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة، الرباط- الجزائر، ط١، ٢٠١٣.

٧- الكتابة ضد الكتابة، عبد الله الغذامي، دار الآداب، لبنان - بيروت، ط١، ١٩٩١.

٨- المرأة والجنوسة في الاسلام، ليلى أحمد، ترجمة : منى ابراهيم - هالة كمال، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٩.

٩- المرأة واللغة: ثقافة الوهم (مقاربات حول المرأة والجسد واللغة)، المركز الثقافي العربي و الدار البيضاء -بيروت، ط١، ١٩٩٨.

١٠- الهيمنة الذكورية، بيار بورديو، ترجمة: د.سلمان قعفراني، المنظمة العربية للترجمة، الحمراء - بيروت، ط١، ٢٠٠٩ .

ثالثاً / شبكة المعلومات

١١ - (اعلان بشأن القضاء على العنف ضد المرأة)، موقع الأمم المتحدة على شبكة الانترنيت .https://daccess-ods.un.org